



بعد تقرير استخدام الأسلحة الكيميائية وملف القتل الجماعي تحت التعذيب لآلاف المعتقلين في سجون النظام السوري التي كشفها مصور الجيش الشرعي، وقدم عنها أكثر من 50 ألف صورة، اعترفت المنظمات الدولية الإنسانية بأصالتها، جاء تقرير منظمة العفو الدولية، الأسبوع الماضي، عن سجن صيدنايا، ليؤكد أن ما سمته "المسلح البشري" لا ينطبق على هذا السجن وحده، وإنما يشمل سجون سورية بأكملها. وردا على تكذيب النظام وحماته من الروس التقرير ، تحدث "العفو الدولية" نظام الأسد بالسماح لها بزيارة السجون، للكشف عن حقيقة ما يجري فيها. وجاء الجواب على لسان بشار الأسد، صاحب المسلح البشري ذاته، بأن سوريا ترفض السماح بزيارة منظمات أجنبية سجونها.

هندسة الموت السورية

وبينما يغذي التفاهم الدولي على احتواء عوائق المأساة السورية الأمل ببدء مفاوضاتٍ لن تكون بالتأكيد سهلة، لكنها صارت حتمية للخروج من المذبحة المستمرة منذ ست سنوات، تشكل قضية المعتقلين الذين يتراوح عددهم، حسب تقديرات المنظمات الإنسانية بين مئتي ألف وثلاثمائة ألف، أغلبيتهم الساحقة من المدنيين الذين تم اعتقال معظمهم على سبيل الإرهاب والتروع، ملفاً رئيسياً وحااسمًا في هذه المفاوضات. ليس ذلك لما يمثله إنقاذ حياة أكثر هؤلاء، أو على الأقل من إزالة على قيد الحياة منهم، من مصيرهم المحتمل، ولا انسجاماً مع مبادئ الحق والأخلاقيات التي تفرض علينا التضامن ضد أفعال منافية للإنسانية، وحاطة من قيم مجتمعاتنا وسلامتها، وإنما أكثر من ذلك لحماية السوريين والأجيال القادمة من احتمال أن تبقى الجريمة من دون عقاب، ويبقى المجرم طليقاً ومستعداً للعودة إلى جرائمه، في وقتٍ تسعى أطرافٌ من المجتمع الدولي إلى تجنيبه أي عقاب، وإعادة تأهيله ليكون شريكاً رئيسياً في عملية السلام، والخروج من لهيب الحرب الذي كان وراء إشعالها لمعاقبة السوريين على تظاهرات احتجاجهم.

لن يستطيع السوريون، مهما عظمت روح التسامح بينهم، تجاوز الصدمة التي سببتها تلك الأشكال غير المسبوقة من القتل الجماعي الذي يكشف عن هندسة كاملة للموت، مع مخططات للإيادة المنهجية بدم بارد ومع سابق تصميم. ولا تفيد التغطية على ما حصل في تجاوز هذه الصدمة، ولن تساعد على الخروج منها.

الحقيقة وحدها هي التي تشكل مدخلًا للمصالحة، بمقدار ما تشكل اعترافًا بالجريمة، وكشفًا عن فظاعتها، وتحمل المسؤولية السياسية والقانونية والأخلاقية.

ليس الجلادون الذين مارسوا أفعال التعذيب حتى الموت والقتل الجماعي والتمثيل بالجثث، هم وحدهم الذين كانوا يتلذذون بشرب دماء ضحاياهم، ويتحملون مسؤولية الكارثة الإنسانية. يشاركون في المسؤولية، كما في المتعة السادية، معلّموهم ومن أعطوا الأوامر لهم والتعليمات، وأولئك الذين دعموهم بكل الوسائل، داخل سوريا وخارجها، لكن أيضًا أولئك الذين صمتوا، وغضوا النظر، واعتبروا أن الأمر لا يعنيهم، أو ليس من شأنهم. إلى هؤلاء الآخرين بشكل خاص، وهم أي أحد، أريد أن أنقل هذه الشهادة الاستثنائية التي تغلبت على هندسة الموت، وخرجت إلى العلن، وكان من المفترض أن تبقى مخفونةً إلى الأبد.

ليس لأي فردٍ منا حصانة في مواجهة نظام البريرية، ولا ضمانة كي لا تكون نحن أيضًا في أي وقت أحد ضحاياه. إذا كانت لدينا أي إرادة للخروج من الكارثة، والعودة إلى مصاف الإنسانية، لا يمكن أن نتجاهل هذه الشهادة التي خرجت من داخل فرع التحقيق للمخابرات الجوية في مطار المزة، قرب دمشق، لا يقل شناعةً في تعامله مع السوريين عن سجن صيدنايا الدموي.

سأرتدي ملامحكم يا رفاق العذاب

كتب شاهد باسم وائل الزهراوي باسمه الصربي:

مضى يومان، وأنا مشبوح في غرفة الموت، والأصفاد كانت قد دخلت في لحم يدي، عندما أدخلوا ذاك الرجل الأربعيني بالأمس فجرًا عارياً من كل شيء.

علقه بالسقف من رجليه على غير عادتهم. كان يرتعد بشدة، لقد أدرك، بحكم أنه ضابط، ما الذي سيفعلونه به بعد قليل، دخل اثنان منهم يحملان كبلين للدبابات، وتبعدُهم واحدٌ منهم، يحمل قطعةً من سلك معدني شائك من النوع الذي نراه على الحدود بين الدول.

أمسكه أحدهم من شعره، وقال له .شو، سيادة المقدم، بحياتك شفتوا ل الله؟ هلق بدك تشوفو شخصي. كانت عيونه تبكي، من دون أن يحركَ ملامح وجهه. يبكي بكرياء لم أر مثلها في كل لحظات اللقاء مع الموت. كنت عاجزاً إلى درجة أنني لم أستطع حتى البكاء معه.

أمسك المساعد السلك الشائك، وبدأ يلفه حول كبل الدبابة، حتى غطى كامل الكبل، فصار شكل الكبل مع الأسلال الشائكة كوجه الموت الزؤام. وكنت قد سمعت عن آلة لحام الحديد، ورأيت أناساً أحرقوهم بماكينة لحم الحديد. لكنني لم أكن قد رأيتها أبداً قبل تلك الليلة.

دخل أحدهم، وأدخل معه آلة اللحام. وصلها بالكهرباء. بدأت أرتجف. وكانت حركتي تزيد ألمي، لأن الأصفاد كانت تحتك بلحمن يدي.

كبلوا له يديه للخلف. كانت أول ضربةٍ هوت على جسده العاري بالكبل الذي كانوا قد وضعوا عليه السلك الشائك، فصرخ صوتاً كأن الأرض قد صرخت معه. وفي كل ضربةٍ كانت تقع على ظهره، كانت الأشواك الحديدية تنgrس بجسده، فيشدّها المساعد المسلح، مقتلاً بها كل ما تحمله معها من لحمه الطاهر.

وعندما كان الكلب ذو الأسلال الشائكة يصادف معدته، كانت الأشواك الحديدية تغوص بلحمه، إلى درجة أن المساعد كان يشدّها مرتين، لتخروج وتأخذ معها قطعاً من جسده الذي كان كالوطن، يعطيهم دمه وأجزاءه، وهم يقطّعونه بأيديهم. اقترب المساعد الثاني، وطعنه بآلة لحام الحديد، فثقب له كتفه كلها، فبدأ يتقيأ دماً. وكأن مشهد الدم كان يغرّيهم، فزادوا عليه بالكلب على كل أنحاء جسده، وهو يصرخ: يا الله يا الله مالي سواك يا الله، يا الله ساعدني، يارب. ولازلت أسمع صوته حتى هذه اللحظة ... اقترب الممسخ بآلة اللحام، وطعنه بكتفه الثانية بقضيب اللحام، فثقب له كتفه الآخر. فأغمي عليه، وصمت تماماً.

ذهب أحدهم، وعاد ومعه عصا الكهرباء. كان المسؤول عن التعذيب هو المساعد أول نصر إسبير. قال لهم: يا الله، صحوه... ما بيطلع من هون غير عالقبر. بدبي صوتوا يوصل لعند الله. بدبي جربها على هادا سيدى. كنت أقرب معتقد له. نظر في عيني وقال: إذا بتراجع وبتوسخ الأرض بعدمك هون، فهمت ولا كلب (يا كلب)، لسا بروح وبرجع بشوفك بخلقتي. ما بقى تموت ولا حيوان.

كنت أنتفخ، وأنا معلق وأرجوه لا يفعل. لم أترك شيئاً لم أتوسل به له، لكن القدر أبى إلا أن أواجه مصيري في ذاك اليوم. ضحك واقترب مني وصعقني بها في ركبتي. أردت أن أصرخ، لكن شيئاً ما شلَّ فمي. شعرت كأن أحداً ما أدخل سكيناً في نفسي عظامي، وكان قلبي قد انفجر، وتجمدت عيناي، ولم أعد أرى بهما. كانت الثوانى تمر كأنها سنوات. وجاء الألم أقصى من الجوع، وأعمق من الطعن، وأبعد بكثير من قدرة البكاء.

يا وطنناً يحكمه الغرباء.

شهقت ولم أعد أقوى على التنفس. فبدأ يصفعني على وجهي. حتى عدت وشهقت من جديد. سمعته يقول لي: طلع (أنظر) فيبني هون ولاك، طلع فيبني هون. لم أكن أراه، حتى أنظر إليه. كنت ألتفت إلى الجهة الخطأ، فيصحح لي جهة رأسى بالكلب الذي أمسكه بيده الأخرى.

سألني "شو اسمك، شو اسمك ولاك عرصى؟ قلت له: أنا الرقم 1646 سيدى.

قال بعرف، بس شو اسمك ولاك، احكي:

قلت له: وائل سيدى، وائل الزهراوى سيدى. فقال أيوه، وهي لساك (ما زلت) متذكر اسمك. أنا، أصلاً، كل الدارسين حقوق بحبن... ثم أمسك الكلب الذي يقطر من دم المقدم، ومسحه برأسى، يريد أن ينظفه، وقال لي: أصلاً كلن دمك متن بعض، دم وسخ.

وكم كان ما فعله عظيماً، وكم كان فعلاً جميلاً من مسخ قبيح لا يعي كل ما أشعر به أبداً. وكم فرحت أني أحمل بعضاً من دم ذاك الضابط الشهيد. قطرات الدم تلك تساويهم جميعاً عندي. وفي عمق ذاك الألم، كنت أتساءل عما يشعر به، وربع لحم جسده قد وقع تحت رأسه.

سكبوا على المقدم وعاءً من الماء. وما إن بدأ يصحو حتى صعقه الممسخ بعصا الكهرباء في ظهره الذي لم يبق فيه جلد يغطي عموده الفقرى. وزادوا عليه بكل الدبابات. وبدأوا يضربونه على رأسه، والكلب الملفوف بالأسلال الشائكة اقتلع نصف فروة جمجمته.

يا وطنناً سقيتك من دمي

يا كل بقع الدم اصرخي. يا أيتها الجدران تكلمي، أخبرى كل هذا العالم ماذا جرى هناك، وماذا فعلوا بنا.
يا وطنناً سقيتك من دمي، وأعطيتك من لحمي وتقاسمواك كالغنيمة، يا هتاواتنا التي كنت أرى

فيها الحرية والإباء: أين اختفيت أين أين؟ وما لن أنساه حتى ما بعد الموت. كيف حاول في آخر لحظات حياته أن يثنى جسده ويصل إلى الأصفاد التي كان معلقاً بها. كانت عيناه قد عميتا وورمتا إلى درجة لا توصف. ومع ذلك، يريد أن ينجو. بصدق نصف أضراسه تحت رأسه. يحاول أن يقاوم الموت القائم لا محالة. ولكن. هيئات هيئات. ولات حين مناص. ثقبوا له فخذنه، وإنغرس قضيب اللحام في عظامه، وأنقلوه بالكبل ذي السلك الشائك في أماكن الثقوب، وعلى رأسه، حتى غابت كل ملامحه، كما يغيب الوطن خلف أحقاب القهقر، وكما يغيب الضوء، عندما ينتصر الظلم، وكما كنت أستسلم للموت، وأدعوه أن يأخذني من هناك ويأبى.

ورأيته كيف كان يُمطر الأرض دماً، كأنه ينتقم من ظلمهم بتنفسه. وشعرت أن الكون كله يمطر دماً. كان صوت تساقط دمه يشبه صوت ارتطام أكdas الجثث، حين كانوا يرمونها فوق بعضها، جثث أبناء الوطن.

المقدم الطيار 31/2020، هذا رقمه واسمها وتاريخه وبطولاته وأطفاله وحياته. صرخ بكل قوته، ثم أسلم الروح هناك. هناك حين كنا نحب بعضنا إلى درجة أتنا ندفن معاً في مقابر جماعية.

بعد ساعة، كان دمه قد ملأ الغرفة. فكوا أصفاده، فوقع على الأرض جثة لا يتحرك. وسحبوه من رجليه، ليكون رقمًا بين مئات الأرقام التي هي جبين الوطن وعزته وشرفه ورائحته.

في صباح اليوم التالي، أنزلوني. لم أكن أشعر بيدي، ولا أستطيع التحكم بكتفي مطلقاً. لبست سروالي الداخلي بعد سبعة عشر يوماً قضيتها عارياً. أدخلوني للجماعية الرابعة زنزانة المرضى.

عندما دخلت غرفة المرضى، كان عدنا 89 شاباً سورياً. بعد عشرة أيام، أصبحنا 62. البقية قدموا أرواحهم لكم ورحلوا. تركوا لكم كل أحلامهم وصراخاتهم ورسائلهم ودمائهم ونظراتهم قبل الموت. وهبوكم أغلى ما لديهم واستشهدوا تحت التعذيب.

لعل الأمل فيكم لا يخيب.

ومن كان صاحب حقل، فلا يتسلل حفنة طحين. وبعد كل تلك الأرواح، كيف يمكن أن نتخيل أن هناك سورياً حراً يمكن أن يساوم على الدم، أو يقايض على العذاب.

وبعد أن كنت هناك، ما الذي يمكن أن يبقى من حياتي سوى أن أخلص لأولئك الأحرار في أغلالهم. سأرتدي ملابحكم، يا رفاق العذاب. سلاماً عليكم أيها الشهداء الأحياء. سلاماً أيها السوريون الشرفاء. الضابط الذي أشرف على هذه الأفعال لا يزال يمارس هوايته الدموية بانتظام في السجون السورية.